وكتب هامر بورجستال النمسوي كتاباً عن المتنبي يصفهُ بانهُ الشاعر العربي الكبير وطبعهُ في فينا سنة ١٨٢٤ وطبع يويونبول الهولندي بعض اشعار المتنبي مع شروح من مجموعة ليدن في الجزء الاول من مجموعة Orientalia اي شؤون شرقية سنة ١٨٤٥ في مئة صفحة

ويطول بنا البحث لو اشير الى المطبوعات الكثيرة ولعل حضرة الاديب يوفي الموضوع حقهُ لاني اردت هنا حصر القول في المخطوطات المحفوظة بدار الكتب دون سواها

توفيق اسكاروس
في دار الكتب السلطانية

التربية والتعليم عند القدماء

(٢)

تاريخ التعليم والتربية عند العرب

سبق لنا الكلام ان العرب تناولوا هذين الفنين عن اليونان والرومان ولكن البحاثة المدقق لا يكتفي بما اقتبسوهُ بل يتطرق الى تاريخ الفنين عندهم في جميع الادوار ولهذا تتبعناهُ إلماماً باطراف الموضوع

عند قدماء العرب — ان الدولة الساموآية التي نبغ فيها المشترع حمورابي وترجح انها من القبائل السامية العربية قد نشأت في العراق وظهر من آثارها القديمة وعادياتها المثارة عنايتها بآداب التربية والتعليم ولاسيما آثار (زيبارة) التي دلت على انقاض مدرسة للاطفال وظهر فيها آجر كثير وغضار نقشت عليهِ دروس تلك المدرسة من لغوية وادبية وحسابية وهي مما أثقهُ حمورابي احد ملوك تلك الدولة في الآداب والتاريخ والدين وتدل على تفوقهم في توسيع نطاق العلوم ولاسيما وضع المعاجم والموسوعات وكتب التدريس بحسب علوم عصرهم وانشاء المكاتب بجانب المدارس للمطالعة كانشاء المستشفيات والصيدليات قرب المدارس الطبية للتمرين على الجراحة والتمريض

ومن ادق ما عُرف من تلك الآثار اعتناؤهم بتهذيب المرأة ومنحها حرية

الاستقلال واباحة الاعمال لها. حتى نشأ في ذلك العهد كاتبات ومؤلفات وخادمات ومعلمات اشتغلن في خدمة الآداب والحكومة ومصالح الزراعة والتجارة والتدريس حتى الكهانة والتنجيم. وكلها آيات بينات دالات على مبلغ رقي المرأة في الآداب والمصالح وتدبير المنزل حتى في التأليف

واذا نظرت الى آثار دولة الرعاة المصرية العربية النجار على احد الاقوال رأيتها باذلة قصارى الجهد في ترقية المعارف وانشاء المدارس. وهكذا كانت الدولة الحيرية وغيرها من دول العرب القديمة حتى ان لقمان الحكيم ترك لنا كثيراً من الوصايا التهذيبية والتعليمية وكذلك البلغاء الذين نشأوا بعده من مثل قس بن ساعدة واكثم الصيفي والحارث بن كلدة واشباههم فضلاً عن النساء كالخنساء وغيرها

عند الخلفاء الراشدين والامويين — من طالع الاحاديث النبوية واقوال الصحابة والعلماء رأى فيها من القواعد التهذيبية والقوانين التعليمية ما يدل على رقي الامة في المعارف

فمن الاحاديث النبوية قوله (ص) : افضل الصدقة ان يعلم المرء علماً ثم يعلمهُ اخاه — العالم والمتعلم شريكان في الأجر ولا خير في سائر الناس — اغدُ عالماً أو متعلماً أو مستمعاً او محباً ولا تكن الخامسة (اي جاهلاً) فتهلك — من كتم علماً ألجمهُ الله يوم القيامة بلجام من نار — اطلبوا العلم ولو بالصين — طلب العلم فريضة على كل مسلم — من خرج في سبيل العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع — ما جمع شيء الى شيء افضل من علم الى حلم — ان باباً من العلم يتعلمهُ الرجل خير لهُ من أن يكون ابو قبيس ذهباً فانفقهُ في سبيل الله

ومن اقوال الصحابة قول الامام عمر بن الخطاب (رضه) : اعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله بالعلم حتى تعملوا — تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم وتواضعوا لمن تتعلمون منهُ وليتواضع لكم من يتعلم منكم ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم — تعلموا العلم فان تعلمهُ لكم حسنة . وطلبهُ عبادة . ومذاكرتهُ تسبيح . والبحث عنهُ جهاد . وتعليمهُ من لا يعلمهُ صدقة . وبذلهُ لاهلهِ قربة

وقال الامام علي ابن ابي طالب (رضه) : يا بني عاشروا الناس عشرة ان غبتم حنوا اليكم وان فقدتم بكوا عليكم

وقال الامام الحسن ابنهُ لبنيهِ وبني أخيهِ : تعلموا العلم فان لم تستطيعوا حفظهُ فاكتبوهُ وضعوهُ في بيوتكم

وكان التعليم صناعة الاشراف وممن اشتهر بهِ سفيان بن عيينة . والضحاك بن مزاحم . وعطاء بن ابي رباح . والكميت الشاعر . وابو الاسود الدؤلي . والحجاج بن يوسف الثقفي واخوهُ . وكان هذان الشقيقان يعلمان بالطائف وكان لقب الحجاج كليباً وكان الصبية المتعلمون منهُ يأتونهُ بخبز مختلف الاشكال فقال بعضهم فيهِ :

أينسى كليبٌ زمان الهزال وتعليمهُ سورة الكوثر
رغيف لهُ فلكةٌ ما تُرى وآخر كالقمر الازهر

ذكر ابن عساكر : ان رومان مؤدب اولاد عبد الملك بن مروان كان الملك يقول لهُ : مُرهم باحراز ما اقبل قبل إدباره . وكتمان ما في الانفس دون الخلصان . ومؤازرة الثقة من الاخدان . وتوقّع انتقاض الإخوان . وقلة التعجب من غدر الخلّان

وقال جعفر الصادق : من داخل السفهاء حقُر . ومن خالط العلماء وُقّر — قل الحق لك او عليك واياك والنميمة فانها تزرعُ الشحناء في قلوب الرجال

وقال عمر بن العزيز : من عمل بغير علم كان ما يفسد اكثر مما يُصلح

وقال ابن هبيرة وهو يؤدب بعضهم : لا تكونن اول مشير . واياك والرأي القطير . وتجنب ارتجال الكلام . ولا تشر على مستبدّ . ولا على وغد . ولا على متلوّن . ولا على لجوج . وخف الله في موافقة هوى المستشير . فان التماس موافقتهِ لؤمٌ وسوء الاستماع منهُ خيانةٌ

ومن عناية النساء بالعلم في ذلك العهد أن السيدة فاطمة الزهراء ابنة النبي وزوجة الامام علي كانت من طبقة أعلم الرجال بين قومها ولها مواعظ وخطب مشهورة . من حفائدها سكينة ابنة الحسين بن فاطمة فكانت دارها ناديًا للعلماء فتسامرهم وتجيزهم وقد انتقدت الفرزدق وجريراً وأثنت على كثيرٍ وجميل

وام البنين زوجة الوليد بن عبد الملك شاركت زوجها بالسياسة والآداب ولها مع الحجاج بن يوسف مساجلات . وكذلك رابعة العدوية اشتهرت بتعمير بيوت العلم ومجالسها الادبية والشعرية

ومن اغرب ما يروى من هذا القبيل ان ابا ربيعة الرأي خرج في البعوث الى خراسان وكانت امرأتهُ حاملاً فولدت ربيعة فلما عاد بعد سبع وعشرين سنة وجد ولدهُ من العلماء وامهُ قد انفقت مالهُ كلهُ على تعليمهِ

عند الخلفاء العباسيين فما بعدهم — لقد اعتنت هذه الدولة بالتعليم واسست المدارس والفت الكتب الاخلاقية والادبية وكلها نصائح في التربية والتعليم واشتهر كثير بتأديب اولاد الخلفاء والامراء فكان الكسائي امام الكوفيين مدرس المأمون والامين ولدي الرشيد . وابو محمد اليزيدي مختصاً بتعليم المأمون . وابو عبد الله اليزيدي النحوي مدرس اولاد المقتدر بالله . والحافظ ابو بكر ابن ابي الدنيا مؤدب المعتضد وعلي ابنه الملقب بالمكتفي بالله وكان لهُ عليهِ كل يوم خمسة عشر ديناراً . وبينما كان يقرئهُ كتاب (الفصيح) أخطأ فقرص خدهُ قرصة شديدة وانصرف فلحقهُ رشيق الخادم فقال لهُ يقال لك : « ليس من التأديب اصطناع المكروه » فتأثر ولما جاء بيت الامير قال لهُ : تقول عني ما لم اقل . قال نعم يا مؤدبي : من فعل ما لم يجب قيل عنهُ ما لم يكن . وكتب الى تلميذيهِ المعتضد وابنهِ المكتفي :

ان حق التأديب حق الابوه عند اهل الحجى واهل المروه
واحقُّ الانام ان يعرفوا ذا ك ويرعوهُ اهل بيت النبوه

وكان الملوك يتواضعون للعلماء حتى ان الرشيد مع ابهتهِ المشهورة كان يصبُّ الماء على يد معاوية المحدث الضرير اجلالاً لعلمهِ . فقال لهُ معاوية كلمتهُ الشهيرة: « والله ان تواضعك في شرفك لاشرفُ من شرفك »

واشتهر كثير من المدرسين بهذا العصر مثل سيبويه والخليل بن احمد وعبد الحميد المترسل وابي عبيدالله بن سلاَّم . ولقب كثير منهم بالقاب التربية والتعليم مثل ابن الدهان الموصلي المتعوت بالمهذب وفتيان الشاغوري بالمعلم والواسطي بابن المعلم وابن العميد بالاستاذ

وعرفوا ضرر العلم الناقص حتى قال الامام الغزالي : الجهل خير من العلم الابتر. ومن بليغ ذلك قول ابن التلميذ الطبيب الشهير :

العلم للرجل اللبيب زيادة ونقيصة للاحمق الطياشِ
مثل النهار يزيد ابصار الورى نوراً ويعمي اعين الخفاشِ

وصرّحوا بالحاجة الى العلم فقال ابو حنيفة : من ظن انهُ يستغني عن العلم فليبك على نفسهِ

واعتنوا بالتربية والتعلم حتى ان هارون الرشيد دخل يوماً على ولده المأمون وهو صغير ينظر في كتاب فقال لهُ ما هذا ؟. فقال: كتاب يشحذ الفكرة ويحسن العشرة . فقال الرشيد : الحمد لله الذي رزقني من يرى بعين قلبهِ اكثر مما يرى بعين جسمهِ

واعتمدوا على التربية النفسية فان ابن المقنع الشهير سئل مرة عن ادبهِ. فقال: نفسي . كنتُ اذا رأيتُ حسناً اتيتهُ وان رأيتُ قبيحاً ابيتهُ

وكلف العلماء بالعمل حتى قال ابرهيم بن ادهم : اطلبوا العلم للعمل فان اكثر الناس قد غلطوا حتى صار علمهم كالجبال وعملهم كالذرّ . وقال الامام الاوزاعي: من عمل بما علم وُفق لما لا يعلم . وقال رجل للمهلّب بن ابي صفرة : بم ادركت ما ادركت . فقال المهلّب : انما ادركتُ ما ادركتُ بالعلم . قال الرجل . ولكن غيرك قد علم اكثر مما علمت ولم يدرك ما ادركت . فقال المهلّب : ذلك علم أعمل وهذا علم استُعمل

وكان مبدأ العرب في التعليم مبنيًّا على قول احد الحكماء لابنهِ : خذ العلم من افواه الرجال فانهم يكتبون احسن ما يسمعون ويحفظون احسن ما يكتبون ويقولون احسن ما يحفظون . وقيل عندهم : الكلام الحيّ حيّ . ولهذا رحلوا في طلب العلم وسماعهِ من افواه العلماء ولم يألوا من تجشم المشاق لتحصيلهِ حتى قصدوا المشرق من المغرب وبالعكس وقرأوا العلوم في المساجد والمدارس والفوا الكتب في آداب الصناعة

ولما كان فلاسفة اليونان قد رحلوا في طلب العلم كما فعل ارسطو في تركهِ الينة بعد موت افلاطون استاذهِ فيها طلباً للعلم خارجها تحدّاهم العرب

فان ابا سعيد عبد الكريم السمعاني النسّابة سافر في القرن السادس للهجرة في طلب سماع الحديث الى ما وراء النهر وسمع منهُ ما لم يسمعهُ غيرهُ وجمع مشيختهُ فزاد عدد شيوخهِ على اربعة آلاف شيخ

والحافظ ابن عساكر المؤرخ بلغ عدد شيوخهِ اكثر من الف وثلاث مائة شيخ من العلماء وثمانين امرأة من العالمات

وعجب الدين بن النجار البغدادي المؤرخ اشتملت مشيختهُ على ثلاثة آلاف شيخ وبقي سبعة وعشرين سنة راحلاً يطلب العلم في الشام ومصر والحجاز واصبهان وخراسان ومرو وهراة ونيسابور وغيرها

والقاسم بن احمد البرزالي الاشبيلي ثم الدمشقي بلغ عدد مشايخهِ بالسماع اكثر من الالفين وبالاجازة اكثر من الف ولهُ مشيخة مرتبة على تراجمهم

وابرهيم بن محمد السوسي من شعراء الطلاسة كان لهُ شيوخ لا يحصون جمع منهم من اسمهُ محمد فقط فبلغوا نحو السبعين وذلك في القرن الحادي عشر للهجرة

ومن اغرب ما قرأت ان الخطيب التبريزي شارح الحماسة عثر على نسخة من (التهذيب) للازهري في اللغة وهي في عدة مجلدات فاراد تحقيق ما فيها على عالم كبير فدلَّ على ابي العلاء المعري الاعمى. فوضع الكتاب في مخلاة وحملها على كتفهِ من تبريز في العجم الى المعرة قرب حلب في سورية لانهُ لم يكن لهُ ما يستأجر بهِ ركوبة فنفذ العرق من ظهرهِ الى الكتاب فاثر فيهِ البلل. قال ابن خلكان: وكانت تلك النسخة في بعض الوقوف ببغداد فاذا رآها من لا يعرف القصة ظنها غريقة. وكان ذلك في القرن الخامس للهجرة

ولقد ادركوا تقسيم منافع العلوم وتأثيرها في المدارك فقال الامام الشافعي: «من تعلم القرآن عظمت قيمتهُ. ومن نظر في الفقه نبل مقدارهُ. ومن تعلم اللغة رقَّ طبعهُ. ومن تعلَّم الحساب جزل رأيهُ. ومن كتب الحديث قويت حجتهُ. ومن لم يصن نفسهُ لم ينفعهُ علمهُ»

وكان اقرار الاساتذة امام تلاميذهم بالحق ولو كان عليهم يدل على صفات سامية في المدرسين من ذلك ان القاضي جابر بن هبة الله قال: قرأتُ المقامات على الحريري فلما وصلتُ الى قولهِ:

يا اهل ذا المغنى وقيتم شرًّا ولا لقيتم ما بقيت ضرًّا
قد دفع الليل الذي اكفهرَّا الى ذراكم (شمطًا مغبرًّا)

قرأت (سغبًا معترًّا) وكنت اظن ذلك ففكر الحريري ثم قال: لقد اجدت في التصحيف وانهُ لأجود. فربَّ (شمط مغبر) غير محتاج. و(السغب المعترّ) موضع الحاجة. ولولا انني قد كتبتُ خطي الى هذا اليوم على سبع مائة نسخة قرئت عليَّ لغيرتهُ كما قلت

وقرأ الاصمعي على عمرو بن العلاء قول الحطيئة :

وغررتني وزعمت انك م لابن في الصيف تامر

فحرّفهُ هكذا :

وغررتني وزعمت انك م لاتني في الضيف تأمر

فقال لهُ ابن العلاء : انت في تصحيفك اشعر من الحطيئة

كان من اسباب تعلمهم احياناً التقصير الذي يظهر في مناقشاتهم ومساجلاتهم ومجالس مذاكراتهم فمن رأى من نفسهِ ضعفاً خجل من جهلهِ واتقن العلم فان الجواليقي تعلم الفلك لانهُ سئل مرة عن معنى قول الشاعر :

وصل الحبيب جنان الخلد اسكنهُ وهجرهُ النار يصليني بهِ النارا
فالشمس بالقوس امست وهي نازلةٌ ان لم يزرني وبالجوزاء ان زارا

فلم يحر جواباً وخجل من نفسهِ ودرس علم الفلك حتى عرف ان مرادهُ ان لم يزرني كان الليل عندي في غاية الطول كما تكون الشمس في برج القوس في آخر الخريف . وان زارني كان في غاية القصر كما تكون في برج الجوزاء آخر الربيع

وكم من عالم اتقن اللغة والآداب لما ظهر في بعض اقوالهِ او كتاباتهِ من الخطإ مما لا حاجة الى تسميتهِ الآن

وكانوا يمتحنون الطلبة بتدقيق قبل ادخالهم في حلقة التدريس ومن ادلة ذلك ان ابرهيم النظام البصري الشهير من اهل القرن الثالث للهجرة جاء بهِ ابوهُ وهو صغير الى الخليل بن احمد الفراهيدي ليعلمهُ . فقال لهُ الخليل يمتحنهُ وفي يدهِ قدح زجاجي : يا بنيَّ صف لي هذه الزجاجة . فقال : بمدح أم بذمّ . قال : بمدح . قال : « تريك القذى ولا تقبل الاذى ولا تستر ما وراءها » . قال : فذمها . قال : « يسرع اليها الكسر ولا تقبل الجبر » . قال : فصف لي هذه النخلة واومأ الى نخلةٍ في دارهِ . فقال : بمدح ام بذمّ . قال : بمدح . قال : « هي حلو جناها باسق منتهاها ناضرٌ اعلاها » . قال : فذمها . قال : « صعبة المرتقى . بعيدة المجتنى . محفوفة بالاذى » . فقال الخليل : يا بنيَّ نحن الى التعلم احوج منك . وفي امثال هذه الحكاية تواضع المعلم والعناية بالانشاء ايضاً

ستأتي البقية عيسى اسكندر المعلوف